أحزان لطيفة

رواية

محمد صلاح

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : أحزان لطيفة
المؤلف : محمد صلاح
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٤١٠٠ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 434 - 6

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

-١-

رمقته بعينين غاضبتين ونهرته قائلة: مالك ومالـه ؟ فصاح متبجحاً: هـو ضربـني، فأخذهـا غضبهـا لابنهـا بالعـدوان، فصفعـت الطفـل علـى وجهـه ولوحـت بيديهـا مهـددة: إيـاك أن تؤذيـه مـرة ثانيـة، وإن بـادرك بـالأذى فاشـكه إلـيَّ، واسـتدارت تمضـي مسـرعة الخطـى لتعـود إلى منزلهـا ممسـكة بصغيرهـا في يديهـا حتـى بلغـاه، فتنهـدت في ارتيـاح وألقـت بطرحتهـا وخلعـت عنهـا عباءتهـا السـوداء، ولم تمهـل الصغـير لحظـة ليحـاول الاختبـاء في ركـن قصـي مـن المنـزل فـراراً مـن عقابهـا الدامـي، أو خوفـاً مـن صخب صياحهـا، وبذاءة سـبابها، ووجوم وجههـا العابـس، ولم يكـد يصـل إلى حجرتـه ويلمـس بيديـه رتـاج بابهـا ليفتحـه حتـى وجـد يديهـا تمسـك بياقـة ملابسـه وتجـره علـى الأرض جـراً، وتمـارس سـاديتها المتوحشـة: فلكمـة في بطنـه وصفعـة علـى وجهـه وركلـة بقدميهـا علـى مؤخرتـه، حتـى تعبـت وسـكنت ومضـت إلى مطبخهـا تاركـة صغيرهـا يجهـش بالبـكاء حزنـاً وكمـداً.

لطيفة .. وليس لها من اسمها نصيب، إنها أمه الفظة الغضوبة دائماً والعابسة في كل حين ..

ولما تزوجت كانت سعادة أهلها لا توصف، وقد ظنوا أن مشاكلها ستنتهي إلى الأبد بعد طلاقها من زوجها الأول محسن حسين عامل السكة الحديد الطيب والذي لم يحتمل جبروتها وفظاظتها طويلاً فتزوج عليها وطلقها لما أبدت تبرمها بزواجه تاركاً لها ابنهما الصغير علي، وانتقلت إلى زوجها الثاني أيمن عبد العال معلم اللغة العربية بمدرسة علي ماهر الابتدائية، فلم يمر أكثر من شهرين على الزواج حتى سافر الزوج إلى الخارج طلباً للرزق لعجزه عن تلبية مطالب لطيفة وتبرمها وسخطها ومعايرتها له بالفقر؛ فقد كان راتبه الشهري لايزيد عن ألف جنيه، فلما أنهكه العجز شرع في السفر إلى دولة الإمارات ليعمل كمدرس لغة عربية حيث يستطيع الحصول على راتب أعلى، مكث هناك ما يزيد عن الثلاثة أعوام بدون الحصول على إجازة واحدة تاركاً زوجته المتبرمة الغضوبة سيئة الطباع وصغيرها علي ابنها التي أنجبته من زوجها السابق صابرًا على مرارة العيش يتلقى أقذر الشتائم وأعنف الضربات، لتكبر في قلبه عقدة النساء .. ليرى كل النساء كأمه لطيفة التي لم يكن لها من اسمها نصيب .. أي نصيب.

لطيفة .. تردد صوت ذكراها يحمل أصواتاً صاخبة حاولت أن تميز بينها دون جدوى، فانسلت من عينيها عبرات لألاءة، تروي وجهها الذابل لتعيد إليه نضرته..

أزعجتها ذكرياتها حتى بلغت حداً لا يطاق، فكانت تود لو تضرب رأسها بحجر كبير فيفقدها ذاكرتها إلى الأبد لتنسى كل شيء حتى اسمها ..

تلك الذكريات التي كانت سبباً رئيسياً في تشكيل شخصيتها التي لا تطاق، فقد كانت تدرك جيداً أنها سيئة الطباع .. فظة غليظة القلب، ليس لها من الأنوثة سوى شعرها الطويل المنسدل حتى منتصف ظهرها وعينيها الكحيلتين وأنفها الصغير وقوامها المشوق الذي جعلها رغم زواجها لمرتين تبدو بكراً فلا البدانة أصابتها ولا مآسي حياتها أفقدتها جمالها..

ظلت تعاني تلك الذكريات السوداء التي ظلت تراودها كل ليلة كأشباح الظلام تحوم حول من أصابه المس.. حتى تغشاها النعاس رأفة بها ورحمة بحالها ..

★★★

-٢-

أطل أيمن عبد العال من شرفة غرفة نومه بتلك الشقة الصغيرة التي استأجرها بمدينة دبي، تأمل شوارعها، وقد استبد به الحنين إلى ليالي القاهرة حيث دفء الأهل وأنس الرفاق وتلك الروح الشعبية الساكنة بأجساد الحواري والأزقة، كم اشتاقت أذنه لسماع نداءات الباعة الجائلين .. دراجة بائع الفينو الطازة والسخن، وبائع الفول المدمس، ونداءات سيدة الترمس، واستغاثات الشحاذين.

قاهرة المعز.. كم هي غريبة الأطوار؟!.. عندما تعيش بها تمل منها وتتضجر من حمقها وفعالها، ولما تفارقها فإذا بالأشواق تلفحك لظى نيرانها، فإذا بالقاهرة كأنها روح فارقت جسدك، ولا حياة لك إلا بدونها.

غريبة أنت أيتها القاهرة .. ما أشبهك بـ «لطيفة».. زوجتي التعيسة، لا أدري ما بها ؟!

أنثى ذات حسن ودلال، وقد ممشوق فتان، ونهود أم حنون، وعيون طفلة حزينة، وددت لو شققت عن قلبها ونبشته، فهو كالقبر يدفن الكثير من الأسرار.

★★★

-٣-

أفاقت لطيفة من سباتها العميق على كابوس مفزع اعتادت زياراته المتكررة لها كل مساء، فقامت من فراشها متجهة إلى غرفة ابنها الراقد على فراشه مغمضاً عينيه الصغيرتين، وقد انحسر عنه غطاؤه قليلاً فدنت منه لتغطيه وتقبل جبهته في حنو بالغ، لم يشعر به الفتى في يقظته ولسوء حظه لا يشعر به في منامه.

هكذا أرادت هي أن تخفي حنانها لأجل أن لا يعتاده فيصطدم بقسوة الدنيا وتقلباتها وغدرها بدون سابق إنذار، كما صدمت هي من قبل وهي صغيرة.

عندما كانت تلهو مع صويحباتها في الحارة توعكت فجأة فعادت إلى منزلها لتشكو لأمها مغصاً مفاجئاً بمعدتها الصغيرة، طرقت باب المنزل دون جدوى رغم أنها تسمع ضحكات أمها العابثة .

فاستمرت في طرقاتها حتى إذا جاءت أمها تفتح الباب نهرتها، فبكت وأخبرتها بأمر وعكتها فدفعتها في عنف نحو

الباب لتذهب دون جدوى، فأفلتت لطيفة من يديها وأسرعت تعدو نحو غرفة النوم لتجد رجلاً غريباً ضخماً ينظر إليها في فزع، وقد التف حول جسده العاري غطاء الفراش فصرخت الفتاة الصغيرة حتى جاءت أمها وكممت ثغرها بيديها وحملتها حتى باب المنزل وأخذت تعنفها على فعلتها قائلة: إياك أن تحكي لأبيك ما حدث وإلا سأقتلك. فرت الفتاة الصغيرة بوعكتها وأخذت تعدو كأن شياطين الدنيا تطاردها ..فأسرعت أمها إلى الغرفة ترتدي ملابسها، وتقطع خلوتها مع عشيقها الذي ارتدى ملابسه بدوره وانصرف متوجساً، وعاد إلى دكانه المجاور للمنزل وكأن شيئاً لم يكن.

ولكن الفتاة العنيدة لم تأبه لتهديدات أمها المستمرة بكتمان ما رأته، وتحينت الفرصة للتلصص على أمها يومياً بنفس التوقيت حتى حانت لحظات العشق الغادرة، وخيانة الأم الفاجرة، ولاحظت الرجل يغلق دكانه ليدخل منزلهم فأسرعت تعدو حتى تصل إلى دكان أبيها لتجده منهمكاً في بقالته يبيع ويشتري، فتدخل وتخبر أباها بما يحدث مؤكدة له أنها لا تعبث، فزاغت عيناه وقد استوعب ما يعنيه كلامها فأغلق دكانه في غضب، وأمسك بيد ابنته وذهبا إلى المنزل ليقتحمه ويرى بنفسه زوجته اللعوب الفاجرة، التي باغتها حضوره المفاجئ وأفزعتها نظرات الشر المطلة من عينيه، ولم يمهلها زوجها لفزعها طويلاً وأسرع بالانقضاض عليهما يصفعها على وجهها ويلكم الرجل ويركله...

حتى تحينت لحظة انشغاله بعراك الرجل وأسرعت إلى المطبخ وعادت تمسك بسكين حاد، ولما فهمت ابنتها ما تحاول فعله صرخت تحذر والدها ولكن لم يكد أبوها يلتفت حتى وجد طعنة السكين تنفذ إلى عنقه فتناثرت دماؤه بغزارة فانخلع قلب الفتاة وصرخت مفزوعة، وأسرعت تعدو بكل ما أوتيت من قوة تصرخ وتبكي، وقد انشغل الناس باقتحام المنزل وعاينوا الحادثة وقد انهالوا على الفاجرة وعشيقها بالضرب والسباب حتى جاءت سيارة الشرطة للقبض عليهما...

★★★

-٤-

لطيفة.. بنت السنة السابعة أخذت تهيم في الشوارع والميادين، تتطلع إلى وجوه الناس ببراءتها، كانت ترسل نظراتها إلى وجوه الرجال تود لو تخبرهم بخيانة زوجاتهن، وإلى وجوه النساء تود لو تقتلهن جميعاً ظناً منها أنهن يشبهن أمها.

إنها تشعر برغبة شديدة في الذهاب إلى طبيب يحول جنسها إلى ذكر، فتكبر وتصبح رجلاً طيباً كأبيها الذي كان يحنو عليها ويربت على كتفيها بعدما يغرس في يديها مصروفها اليومي لتشتري الحلوى وتدخر بعضه حتى حين، لتشتري الدمى والألعاب التي كان يعرضها العم صالح في دكانه ..

أخذت تصول وتجول في الشوارع والأزقة حتى أنهكها الجوع والظمأ، وكانت تستحيي أن تطلب شيئاً من أحد سوى والدها الراحل، فاغرورقت عيناها بالدموع واتجهت إلى رصيف هادئ فاتخذته مقعداً تنتظر ما لا تعرفه، وقد أخفت وجهها بكفيها، فأظلمت الدنيا أمام عينيها، وأخذت تسرح بخيالها تلمح أشباح المأساة التي عانت منها منذ قليل، فأجهشت بالبكاء حتى سمعها ذلك الرجل

الجالس أمام بقالته الصغيرة يقرأ الجريدة ويرتشف فنجان القهوة، فتأملها لبرهة واقترب منها ليستطلع أمرها فسألها باستغراب: لماذا تبكين يا صغيرتي ؟!

تطلعت له بعينين دامعتين وقلب ملتاع، فمرر أنامله على مقلتيها يجفف دموعها مشفقاً، وأخذ بيديها وأحضر لها بسكوتاً وشيكولاتة وزجاجة بيبسي فأكلت وشربت، فارتسمت على شفتيها ابتسامة ولمعت في عينيها بارقة أمل.. ابتسم لها الرجل وسألها عن حالها، فقصت عليه القصة، فربت على كتفيها في حنان وقد عزم على أن يكفلها وتعيش معه بين أفراد أسرته، أخذ بيديها إلى منزله الصغير، وأخبر زوجته الحنون بقصتها، ووصى أسرته أن يرحموا حالها ويرفقوا بها، ولحسن حظها كانت زوجة ذلك الرجل كأنها جمعت حنان الدنيا بأجمعها فلم تنهرها يوماً كأمها القاتلة، ولا قست عليها.

وأخذت تمضي الأيام وذكرياتها لا تفتأ أن تذهب عنها، تراود أحلام نومها، وتؤرق خيالات يقظتها، وهكذا أصبحت تحيا كمريضة لا تدري لسقمها شفاءً ولا لجرحها النازف دائماً وأبداً دواء، دون توقف.

★★★

-٥-

كانت ترافقه كل يوم تساعده في عمل البقالة صباحاً وعند الظهر تعود إلى منزلها الجديد تساعد زوجة الرجل وتقاسمهما طعامهما وشرابهما، ومرت الأيام والشهور الأعوام في وئام وسلام، ولا زالت تطاردها الذكريات حتى جاء ذلك اليوم المشئوم.

حينما زارتهم الحاجة نادية جارتهم التي تسكن بجوار منزلهم وأرخت حبال الود رغم عزلتها الطويلة عن جيرانها بالحي الصغير، وتبادلوا الزيارات، وسرعان ما تطور الأمر للرحلات ولم يكن من الصعب أن تستوعب لطيفة أمر ذلك الشاب العشريني ذي الشارب الخفيف والحاجب النحيف والوجه الأسمر ذى العيون الحادة والشعر الناعم الكثيف، وقد بدت عليه أمارات الاهتمام والملاطفات التي أخذ يلقيها عبثاً يميناً ويساراً، ليسترق ابتسامتها وإعجابها دون جدوى، بينما تلقي أمه الحاجة نادية على مسامع لطيفة قصائد المدح والمباركات للابن الحبيب محسن حسين كما يقال «مين يشهد للعريس؟!».

كانت طوال الرحلة تعاملهم بجفاء وتبادلهم تودهم بكلمات شكر باردة وتقطب حاجبيها وتبادلهم نظراتهم بامتعاض بينما تجاهل الجميع عبوسها وتجهم وجهها وجفاء تصرفاتها، وجعلوا يلاطفونها ويتغزلون في حسنها ووقارها ودماثة أخلاقها..

فرت إلى ركن قصي مبتعدة عنهم تتأمل أمواج البحر المتلاطمة، تراها كلوحة زرقاء صافية ترسم عليها أقلام مخيلتها صوراً ضبابية وأحداثاً قديمة تتقاذفها الأمواج مع قطرات المياه، فيقشعر بدنها وقد عقدت ذراعيها وتطايرت خصلات شعرها، وأرهفت سمعها حين سمعت وقع أقدام من الخلف، فالتفتت تلمح القادم فإذا به يبتسم في خجل محاولاً اجتذاب أطراف الحديث عن البحر: أتيت أشكو للبحر ما بقلبي فوجدتك قد سبقتني إليه.

حدجته بنظرات حادة وقطبت جبينها وأنكرت تطفله بجحوظ عينيها وتمتمت في حنق: أريد أن أبقى وحدي من فضلك.

أطرق رأسه أرضاً ورماها بنظرة لم تفهمها وغمغم: متأسف، والتفت يعود من حيث أتى، فتنهدت بضيق وشردت ببصرها ملياً كأنها تتلقى من البحر رسالة في غاية الأهمية، فأسبلت جفنيها وعقدت ساعديها ولاح لها بصيص من الضوء في عينيها، قد أضاء في غياهب قلبها سراجاً من الأمل في حياة جديدة تتذوق فيها طعم السعادة، وقد تلاعبت

بهـا الأفـكار وبـدا لهـا ذلـك الشـاب العشـريني أمـلاً، عسـاه يؤنـس وحدتهـا وتقرأ لـه ذكرياتهـا وتشـكو لـه بثهـا وحزنهـا، لاحـت لهـا غمامـات في صفحـات السـماء تومـض بصورتهـا ترتـدي فسـتانها الأبيـض بجوارهـا محسـن حسـين يرتـدي بدلتـه السـوداء اللامعـة بحلتهـا البنفسـجية، وبـدا لهـا رجـلاً لا بـأس بـه يخطـب ودهـا، ويرضـي غرورهـا، ويخضـع لسـلطان جمالهـا، وكبريائهـا ودلالهـا، ثـم اتخـذت قرارهـا وأغلقـت أبـواب الـتردد والحـيرة للأبـد حتـى حـان موعـد الزفـاف.

نفـخ أحدهـم في المزمـار الضخـم الـذي يمسـكه بكلتـا يديـه ووقـف أمامـه مـن الناحيـة الأخـرى نديمـه يـرد عليـه بنغمـة أخـرى بمزمـاره، وتعالـت ألحـان الموسـيقى تعـزف أنشـودة الزفـاف الخالـدة.. «طالعـة السـلالم يـا ماشـا الله عليهـا»، وقـد سـار محسـن حسـين وبجواره عروسـه الفاتنـة لطيفة تتأبـط ذراعه الأيسـر، ومـن حولهمـا الأهـل والأقـارب، ومـن أجـاب الدعـوة الأصدقـاء والجـيران، واحتفلـوا جميعهـم بليلـة العمـر فاصطخبت الألحـان وتعالـت أصـوات الغنـاء وتراقصت النسـاء وتقافز الأطفال وصفـق الرجـال، وانتهـت الليلـة وذهـب العروسـان يلتقيـان بعش الزوجيـة، انغلـق بـاب الغرفـة ومضـى كل إلى حـال سـبيله.

وخـاب أملـه في ليالـي الزوجيـة الأولى، ولم يحصـل علـى مـا يبتغيـه كل زوج جديـد، ولم يهنـأ مـع لطيفـة بلحظـة اسـتمتاع واحـدة، حتـى جـاءت تلـك الليلـة الـتي أشـار عليـه أحدهـم

بـأن يسـقيها الخمـر فتثمـل ومـن ثـم يتغشـاها كمـا يتغشـى الـزوج عروسـه، وأخـذ بمشـورته، فابتـاع زجاجتـين مـن الخمـر وعـاد إلى المنـزل وتمكـن مـن إغـواء زوجـه العنـود.

فضمهـا إليـه وربـت علـى ظهرهـا في حنـو بالـغ افتقدتـه كثـيراً، وتناولـت المزيـد مـن الخمـر، وذرفـت الكثـير مـن الدمـوع، غيمـت علـى جفنيهـا سـحابة كبـيرة حركتهـا ريـاح الخمـر فأمطـرت أحزانهـا علـى خديهـا واسـتجابت للـزوج العاشـق الـذي طـال اشـتياقه لتلـك اللحظـة الزوجيـة السـعيدة، فاسـتدرجها للفـراش وهـم بهـا فاستسـلمت وبـذر بذرتـه، فأنبـت جنينـاً، مـرت الشـهور بـه فتكـون، ثـم وقـرت بطنهـا وحبلـت بفتـى اسمـه علـي، حتـى حانـت سـاعة الميـلاد.

وجـاء علـي وقـرت بـه عيناهـا وتغـيرت بعـض طباعهـا، وتلاشـت بعـض ذكرياتهـا، فأمضـت وقتهـا تغـرق ابنهـا بـدفء الأمومـة وترضعـه لـبن العطـف، ونمـت لديهـا مشـاعر الأمومـة فذهبـت عنهـا بعـض القسـوة، حتـى كـبر الابـن فانتكسـت وسـاءت معاملتهـا لـلأب وابنـه فضـاق بهـا ذرعـاً.

في حنق صاح بها:

لم أعـد أحتمـل جفـاءك وقسـاوتك، أأنجبـك أبـوك مـن ميـاه النكـد والكآبـة؟!

فأجابت باستخفاف:

ليس من المهم أن تحتمل، وأعلى ما في خيلك اركبه.

فاشتاط غضباً ورمى عليها الطلاق ثلاثاً، فارتج عليها، وبكت وانهارت، وسقطت أرضاً مغشياً عليها، فغلبته القسوة فتركها وغادر، ولم يعد بعدها أبداً.

★★★

-٦-

ارتفع أزيز هاتف أيمن عبد العال فتناوله من على الكوميدينو المجاور لفراشه وأجاب بصوت ناعس.

— آلو.

— أيمن .. هل لا زلت نائماً؟!

— نعم .. كم الساعة الآن ؟

— الواحدة والنصف ظهراً.

— حسناً .. لقد نمت في ساعة متأخرة من الليل .

— ترى من سعيدة الحظ التي سرقت منك عقلك يا أيمن ؟!

— هل نسيت أنني متزوج يا خلفان ؟!

— كلا لم أنس ذلك بالطبع .. ولكن لكل منا قلبًا يتقلب كل يوم في عشق الجمال ..

— كلا .. كلا لست ممن تتقلب قلوبهم ..

— حسناً .. حسناً .. استيقظ الآن ولنا لقاء في مقهى الخلود.

— على الرحب والسعة.

أعاد هاتفه الصغير إلى مكانه واستلقى قليلاً وأخذ يذكر تلك التي حيرته واكتوى بنار الغربة بسببها ليرضيها، وهيهات .. هيهات أن ترضى ..

لطيفة .. ترى كيف حالك الآن، الغربة قاسية على مثلي، لم أعد أحتمل غيابك عني، كثيراً ما أنظر بشرود إلى تلك المباني الضخمة والأبراج العالية ذات التصميمات الغريبة كأنها مسلات مصرية فرعونية قديمة مزدانة بأضواء ذات ألوان مبهرة، أشم عبيراً فواحاً يملأ الجو، كأن السماء تمطر قطرات الندى معطرة على تلك المدينة الغريبة، كأنها مدينة من المدن الأسطورية، كم أتمنى أن تصبح مصر مثلها، لكن رغم بساطتها فهي في قلبي أجمل مدن العالم.

ارتفع أزيز الهاتف مرة أخرى ليقطع عنه ضباب الأفكار فتناول هاتفه وأجاب:

— مرحباً ..

— مرحباً .. هل لا زلت في المنزل يا كسول ؟!

— نعم .. أنا أستعد للنزول الآن وسوف أكون معك خلال نصف الساعة بإذن الله .

— هيا .. أسرع بالله عليك .

ونهـض مـن فـوره وذهـب إلى المطبـخ ليعـد طعـام العشـاء وكوباً مـن النسـكافيه السـاخن، ارتشـف منـه بضـع رشـفات ثـم ارتـدى ملابسـه وانصـرف إلى حيـث يجلـس أصدقـاؤه بالمقهـى.

دفـع بـاب المقهـى الزجاجـي فتنسـم صقيـع هـواء المكيفـات المعلقـة بأنحـاء المقهـى واشـتم رائحـة المشـروبات المختلفـة، فأحـس ببعـض الانتعـاش واشـتهى مشـروب المانجـو المثلـج الـذي تطغـى رائحتـه علـى جميـع المشـروبات الأخـرى، وتطلـع إلى أصدقائـه الجالسـين علـى أريكـة طويلـة بركـن بعيـد داخـل المقهـى، وقـد حيـاه جميعهـم بابتسـامة فحياهـم وتبادلـوا العنـاق والتقبيـل، وجلسـوا يتبادلـون أطـراف الأحاديـث، حتى أشـرقت شمـس لهـا ضـوء لا يخطـف الأبصـار بـل يجعلهـا تـبرق كأنهـا تـرى الجنـة، تجـري مـن تحتهـا الأنهـار، وتناثـرت أشـعتها الدافئـة فأحاطـت بجوانـب المقهـى وقـد أخـذت بأبصـار الرجـال عـن نسـائهم، وتميـزت النسـاء غيظـاً وحقـداً وأخـذن يحدجنهـا بنظـرات الحسـد، وقـد فـرت بعضهـن برجالهـن خـارج المقهـى خشـية عليهـم مـن الغـرق في بحـر هواهـا.

التـوت أعنـاق الرفقـة، في حـين بـدت علـى ملامـح أيمـن أمـارات الشـرود واللامبـالاة حـين ابتعـدت عيناه عـن المـكان وطـاف عقلـه بسماء دبـي وذهـب إلى هنـاك .. إلى مصـر حيـث المدرسـة الـتي يعمـل بهـا ولطيفـة الـتي تزوجهـا، كان مندهشـاً مـن شـدة اشـتياقه إلى حيـاة جافـة لا نعيـم فيهـا، امـرأة حسـناء

يحيا معها كأخته، وابناً ليس من صلبه، وعمل يلتهم من عافيته ويفترس صحته دون أجر يكفيه وأسرته .. لكنه كان مشتاقاً لتلك الحياة.

ومن حوله الصفير أخذ يعلو وكلمات الغزل التي أخذت تفتر عنها ثغور المعجبين من العزاب وخفقات قلوب الجالسين مع معشوقاتهم أو زوجاتهم إعجاباً بتلك الحورية الرائعة التي أخذت بالألباب وسطت بأسلحتها الفتاكة على قلوب الرجال فسلبتها نبضها وجلست على مقعد وحدها فأخرجت كتاباً من حقيبتها وداعبت ورقاته بأطراف أناملها الرقيقة متجاهلة تعليقات من حولها ونظراتهم.

انتبه أيمن إلى ما يحدث بعد عودته من رحلته الذهنية إلى مصر، فهبطت طائرته في المقهى والتفت إلى رفقته منتبهاً لانشغالهم وقد رمى ببصره حيث يرمون، لتقع عيناه على الحورية الفاتنة ولم يعبأ بجمالها كثيراً ورماها بنظرات لا مبالية، حينها رفعت عينيها صدفة لتدرك أنه لا زال يوجد في العالم ذلك الرجل اللبيب الذي يأبى لبه أن تذروه الرياح، ويأبى قلبه أن تأسره امرأة مهما أوتيت من جمال.

صوبت نظراتها إلى عينيه تقرأ لغتها المعقدة ذات الحروف الغامضة والمعاني النادرة، لتلمح في مقلتيه دموع الشوق والحنين إلى شيء تجهله، فوجدت من قلبها نبضات متسارعة كأنه يريد أن يصيح كمن كُمم ثغره فعجز عن الكلام.

نظر إليها مذهولاً وقد انتبه لنظرات الجميع من حوله يقصفونه بقذائف الحقد والغيرة الحارقة وقد انتبهوا إلى انجذاب حورية دبي الفاتنة نحوه، حيث شردت بناظريها وغرقت في بحر هواه.. ذلك المصري الوقور.

ولثوان معدودة عقد العزم على تجاهل الأمر والتفت إلى رفقته وأخذ يبادرهم بأطراف حديث طال أمده حتى ملت الحورية وأخرجت كتابها تعاود القراءة فيه، بينما تختلس النظر إلى ذلك المصري بين الفينة والفينة حتى خابت محاولاتها وارتج عليها فقررت أن ترحل، فأبى قلبها إلا أن يعلن ثورته ويبقى في المكان، ولما قامت لتتجهز للرحيل لمحها المصري فاضطرب قلبه كموج البحر الهائج وقام يسعى إليها حتى غادر المقهى وأسرع يلحق بها وينادي عليها، لتلوح له من عينيها شبح ابتسامة وبريق دموع ملأى بالفرحة والبشرى، حينها تساءلا في صوت واحد .. ما اسمك ؟! .. ما اسمك ؟! وأبت الأعجوبة القدرية إلا أن تجمع أيضاً بين صوتيهما فأجابا .. لطيفة .. أيمن، ولأول مرة تلمح لطيفة في عينيه أشباح الذهول، فرفع حاجبه ومال إلى الأمام يسألها في خفوت .. لطيفة؟!

فنظرت إليه في استنكار وقد تلون وجهها بحمرة خفيفة وقالت: نعم.. اسمي لطيفة، فيومئ برأسه موافقاً: نعم.. اسمك جميل يا لطيفة .. وسألها .. هل لي أن أطلب رقم جوالك ؟!

– نعم .. بكل سرور..

– أخشى أن أزعجك ..

– لا .. كنت سأسألك عن رقم هاتفك ولكن منعني الخجل...

والتفتت لتنصرف مسرعة الخطى وقد اكتسى وجهها بحمرة الخجل، وألح تفكيرها عليها في ذلك الرجل الغريب.. الذي استطاع بوقاره العجيب أن يسلبها عقلها في حين غفلة، ويحصل منها على هاتفها الذي طالما عجز الكثير عن الحصول عليه، وأكثر من ذلك قلبها الذي ثارت ثائرته واضطربت أحواله منذ وقعت عيناها على نظراته الشاردة، وملامحه المصرية التي ذكرتها بأبيها الرجل الطيب الذي قتلته أمها لكي ترث ماله وتفر مع عشيقها وتتركها طريدة شريدة، وقد نكثت عهد الأمومة بعدما خانت ميثاق الزوجية.

وأخذت تلعن النساء ألف مرة ومرة وتخشى الرجال، فقد صفعتها أيدي الحياة القاسية في لحظات، ولكنها أبت إلا أن تنتقم لها ولأبيها من الحياة، وأخذت تنتظر اللحظة التي تصفع فيها الحياة، وقد ذهبت بها الأفراح كل مذهب .. آهٍ من تلك الدنيا وأعاجيب أحوالها، فها قد تحقق حلمها ورأت كأن روح أبيها تسكن جسد رجل آخر.

اسمه أيمن.. مصري الجنسية.. له مثل ملامحِ أبيها، ووقاره وشرود بصره، ورأت في نظراته المذهولة دائماً.. نفس نظرات أبيها عندما قتلته أمها فوقف يحدجها بنظرات مستغيثة وقد أصابه الذهول والروع مما فعلته أمها التي رآها تخونه في فراشه، وتدافع عن خيانتها وعشيقها بسكين طعنته به فأردته قتيلاً وصرخت..

كصرخة وجهها الآخر..

في مصر..

★★★

-٧-

استيقظت لطيفة على أزيز هاتفها المحمول وتطلعت إلى رقم المتصل بعينين نصف مغمضتين وسرعان ما أفاقت؛ إذ كان ذلك المتصل هو زوجها أيمن فردت قائلة:

— متى ستعود؟! .. لقد اشتقت إليك كثيراً.

أجابها بذهول أب يستمع إلى ابنته الصغيرة تنطق لأول مرة:

— حقاً .. هل اشتقت إلي؟!

همست في دلال:

— نعم .. كثيراً.

زفر صدره بتنهيدة حارة وهتف في سعادة:

— سأحجز على أول طائرة قادمة إلى القاهرة، فأنا لم أعد أستطيع البقاء بعيداً عنك أكثر من هذا.

ابتسمت قائلة:

– وأنا أنتظرك على أحر من الجمر.

وأغلقا الهاتف وأسرع أيمن إلى دولابه يجمع أغراضه في حقيبة السفر الكبيرة، وأسرع يرتدي ملابسه، ثم ترك منزله ليشتري بعض الهدايا التي سيعود بها إلى مصر.

دلف إلى أحد محلات لعب الأطفال واشترى لابن زوجته علي قطاراً كبيراً ودبدوب تويتي قد طلبه منه قبل السفر، ومسدس المياه الكبير، وصعد للدور الثاني ليشتري لزوجته لطيفة عباءات خليجية أعجبته وعلبة أدوات «الميك أب» الكاملة، وأربع بيجامات منزلية بألوان زاهية، ثم غادر المحل، واستقل إحدى سيارات الأجرة ليعود إلى منزله ويحزم حقائبه ويجهز للعودة إلى القاهرة.

ارتفعت أصوات ضجيج المسافرين في المطار وأعلنت الرسالة الآلية بالمطار عن بدء موعد إقلاع طائرة القاهرة، وأصوات التوصيات الالكترونية المعتادة بربط الأحزمة وإغلاق الهواتف وشبكات الحواسب المحمولة والأجهزة الالكترونية، وأقلعت الطائرة إلى مصر..

★★★

-٨-

تراقصت نبضات قلبها طرباً وفرحاً بمقدم زوجها الغائب بعد أيام الوحدة الطويلة، وأخذت تجهز نفسها وولدها لاستقبال رب البيت بعد عودته، حينها ذهبت بها الخواطر إلى الماضي البعيد، حيث أمها التي كانت تشعر دائماً بالوحدة رغم قرب أبيها الحنون منها، حينها تذكرت كلمة أبيها التي كانت تتردد على مسامعها دوماً:

«أنا لا أشجع السفر للخارج فإنه والرزق على الله فأنا لا أكترث بشيء في هذه الدنيا سوى بوجود زوجتي وابنتي إلى جواري».

وتنهدت تنهيدة حزينة بملء صدرها وفاضت على وجنتيها أنهار الدموع، وتطلعت في المرآة التي عكست وجهها الشاحب الجميل ونظرة عينيها البعيدة كأنها تبحث عن مفقود..

وفجـأة انتهـت إلى مسـامعها أصـوات صاخبـة لهتافـات ترحيـب.. فتبدلـت ملامحهـا وعـادت الدمـاء تخضـب وجنتيهـا بحمـرة الحيـاة، وإشـراقة لاحـت في عينيهـا كأنهـا جثمـان عـادت إليـه روحـه..

أسرعت إلى البلكونة لتستطلع الأمر..

★★★

-٩-

ارتفع أزيز هاتفه الخلوي برقم له نفس اسم زوجته فأسرع يرد قائلاً.. أنا الآن في القاهرة..

أخيراً.. حمد لله على سلامتك، لقد اتصلت لأطمئن على عودتك..

الحمد لله.. لقد عدت، لكن القاهرة اشتاقت إليك..

بالله.. يا الله على حلاوة كلامك، وأنا اشتقت للقاهرة التي لم أرها يوماً ولم ترني..

لكن أنا حدثت القاهرة عنك فاشتاقت إليك..

هههههه.. كفاك عبثاً بقلبي الرقيق يا ذا القلب الحنون..

أحقاً.. قلبي حنون؟!

لا.. من قال هذا؟!..إنني أمزح فقط..

حقاً.. كفاك مزاحاً وقولي لي متى ستأتين إلى القاهرة؟!

لا أعلم حقاً.. ولكن يوماً ما سأزورها بإذن الله..

وأنا في انتظار ذلك اليوم على أحر من الجمر..

أتركك أنا لتستمتع مع زوجتك وكما يقول المصريين «من لقي أحبابه نسي أصحابه».

لكن أنا لم ولن أنساك يا سيدة لطيفة..

ألم أقل لك اسمي لطيفة ولست سيدة..

أعلم ذلك ولكن حتى لا أنسى وأظن أنك زوجتي.. هههههه

هههههه.. يا رجل، لا تدع الأمر يقلقك، فإذا نسيت سأصفعك على وجهك لتتذكر..

لالالا.. هذا ما يراودك به خيالك.. لم تخلق بعد ولن تخلق بإذن الله التي تجرؤ على مثل ذلك..

هههههه.. ولم يخلق بعد يا سيدي الرجل الذي يتناسى ويظن أنني زوجته..

هههههههه.. يالك من متحدثة لبقة لا أستطيع محاجتها..

نعـم يـا سـيدي أنـا كذلـك بالضبـط.. شـكراً لأنـك عرفـت ذلـك جيـداً..

هيا.. أتركك في رعاية اللّه..

أستودعك اللّه.. مع السلامة

اللّه يسلمك..

وأغلـق الهاتـف وأسـرع يبـدل اسمهـا لاسـم آخـر حتـى لا تـراه زوجتـه..

★★★

-١٠-

التقت الأعين في شوق وتبادل الجسدان عناقاً حاراً بحرارة اللهفة والحنين، هكذا لأول مرة تشعر لطيفة بالحب الحقيقي والأمان الغريب والدفء العجيب الذي لم تشعر به من قبل سوى في حضن أبيها رحمة الله عليه.

«افتقدتك كثيراً...»

نطقتها لطيفة بكل ما أوتيت من شوق ولهفة ودموع تنحدر من عينيها وتغرق وجنتيها، وغرابة إحساسها بالاشتياق لشخص منذ فقدت أبيها، فقد حل زوجها محله، حتى أنها كانت تشعر بروح والدها تطوف حولها تطمئنها بأنه مهما افترقت الأجساد فلا يمكن للأرواح أن تفترق.

أسرعت تتناول حقائب زوجها وتفرغ محتوياتها بنشاط جم وتنظمها في دولابه الخاوي منذ سافر وتركها تعاني قسوة الوحدة وعذاب الذكريات التعيسة، وأسرعت تجهز له الحمام وطعام الغداء، بينما اتجه هو نحو غرفته ورقد على فراشه قليلاً يستريح من عناء السفر حتى تنتهي زوجته من عملها.

نظـر إلى صـورة أبيهـا المؤطـرة علـى جـدار غرفـة النـوم وقـد سـرح بخيالـه كيـف تثـير تلـك الصـورة في قلـب زوجتـه لطيفـة مـن الأحـزان ومـا تفعلـه بهـا عنـد نومهـا، أثـار شـفقته عليهـا وأدرك مـدى معاناتهـا مـن الوحـدة والشـوق واليتـم.

طرقـات رقيقـة علـى بـاب الغرفـة ثـم فتحتـه برفـق وأطـل وجههـا الشـاحب ونظراتهـا البائسـة هاتفـة في ترحيـب.. لقـد أعـددت لـك الحمـام والغـداء.

★★★

-II-

تأملت صورته التي احتلت فؤادها وقد استبد بها الحنين والشوق إليه، ولكن قد تباعدت بينهما المسافات واتسعت الفجوة، فنيران الغيرة قد اشتعلت في قلبها دون إنذار، وقد كانت من ذلك الطراز من البشر الذي يستطيع السيطرة على انفعالاته وعواطفه، ولكن تلك المرة اتقدت فيها مواقد المشاعر الملتهبة جميعها حتى لم تعد تستطيع الانتظار أكثر من ذلك..

وسرعان ما تناولت هاتفها وقد أخذت تعبث به بأطراف أناملها وقد ترددت لبرهة هل تتصل به أم لا.. فأسبلت عينيها الجميلتين، وسرحت بخاطرها فيه حتى استحضرت روحه في خيالاتها، فدنا منها وقد داعب خديها بأنامله في حنان متمتماً: أنا الآن إلى جوارك وسأظل إلى الأبد.. ولن أتركك أبدا..

يا لتلك الأماني التي تومض في ضباب الخيال بداخل عقولنا المتأملة والتي لا تكف أبداً عن مداعبة قلوبنا المكلومة ترسم لنا كل ما لذ وطاب لنفوسنا من آمال وأحلام لم يكتب لها الوجود، ولكن سرعان ما تهطل أمطاراً من غمام العيون

تـروي أراضـي وجوهنـا الجدبـاء، وتحـرق جلودنـا بلهيـب المشـاعر الحارقـة، حتـى نضطـر دائمـاً لدفـن بـراءة الخيـال تحـت الثـرى... ثـرى الواقـع المريـر..

لطيفـة الثريـة الـتي لطالمـا تمناهـا مـن حولهـا، وتحدثـت عنهـا الألسـنة المادحـة والقادحـة، وتمنـت أن تصـل إليهـا أفـواه العشـاق يقبلـون أناملهـا راكعـين، إمـا طمعـاً في ثرائهـا، أو جمالهـا الآخـاذ.

هـي الآن ترقـد علـى الفـراش وحيـدة مشـتاقة، إلى ذلـك المصـري الـذي اسـتطاع ببسـاطته وهدوئـه أن يحـول كل عنادهـا وصلابتهـا وامتناعهـا الطويـل عـن الرجـال إلى لوعـة وغـيرة واشـتياق ولهفـة ثـم يبتعـد فجـأة لتـزداد نـيران مشـاعرها لظـى، وتـزداد ضلوعهـا احتراقـاً، وتضغـط أزرار هاتفهـا بلاوعـي فتختار اسمـه «أيمـن» وتضغـط زر اتصـال..

★★★

-١٢-

ارتفع أزيز الهاتف الخلوي الخاص بأيمن الذي كان طريح الفراش وقد تناولت زوجته الهاتف ونظرت إليه بنظرة حائرة حتى عزمت أمرها وضغطت زر الرفض، وأعادته إلى مكانه وغادرت الغرفة..

فارتفع الأزيز مرة أخرى لينتبه أيمن في تلك المرة ويلتقط الهاتف ليرى اسم المتصل فيسرع بالرد بارتباك..

- مرحبا.
- هل أزعجتك.
- كلا.. كلا .
- هل زوجتك بجانبك؟!
- لا.. لا.
- إذن.. أين هي؟!
- لا أدري.. مؤكد أنها تحضر الطعام.

– حسناً..أردت أن أطمئن عليك فقط وآسفة لإزعاجك.. سلام.

– سلام.

نهض مسرعاً وأخذ يطرقع ذراعيه أعلى كتفه وارتدى نظارته وغادر غرفته إلى الصالة فوجد أميرته تحضر طعام الإفطار فأسرع إلى المطبخ يعاونها ويضاحكها..

– كم هي رائعة ضحكتك يا حبيبتي!

– الأروع أنك أنت صانعها يا حبيبي.

– يالسعادتي بكوني سعادتك!

– كم أحبك!

– وأنا أعشقك.

تعانقت أيديهما وأسندت رأسها على عاتقه واتجها معاً إلى المائدة فوضعا أطباق الإفطار على المائدة وانحنى بتمثيلية ينظف مقعدها وبلهجة الخادم لأميرته قال: الآن يمكنك الجلوس يا أميرة قلبي..

ابتسمت بدلال وعيناها تمتلئان بالحب العميق والحزن الدفين وقالت: بل أنت أمير قلبي وأنا خادمتك يا سيدي ومولاي..

ابتسما وأخذا يتناولان الطعم برومانسية عاشقين جديدين، وكلاهما لايدري من أين أتى كل ذلك العشق المفاجئ، هل هو من طول الغياب؟! .. أم حسن العشرة؟! .. لكن لافارق، الأهم هو أن العشق قد طرق باب القلوب، وما أجمل الحياة حين نعشق، وما أسوأها حين نبغض أو نفارق.

★★★

-١٣-

نـيران الشـوق والغـيرة سـتحرقني لامحالـة، كيـف حالـي وأنـا الآن أجلـس تعصـف بـي أفـكار فتـاة مراهقـة تغـار علـى حبيـب ليـس لهـا وتشـتاق إلى رؤيتـه ولقائـه ومجاورتـه، مـا أغـرب الأنثـى حـين تعشـق، تصبـح كالأطفـال بأنانيتهـم المفرطـة وتنهـار قواهـا العقليـة وقواعـد المنطـق بداخلهـا حتـى تصبـح كالمجانـين وضعـاف العقـول..

الآن كيـف بـي وأنـا جالسـة أكاد أمـوت مـن شـدة الاشـتياق لأحدهـم، والرجـال تشـتاق إلى نظـرة واحـدة مـني، وقلوبهـم تتهـاوى تحـت أقدامـي كأوراق الخريـف دون أن يرمـش لـي جفـن، ولـو علمـوا أنـني الآن أعشـق أحدهـم، لتراشـقت سـهام أعينهـم عليـه حقـداً وحسـداً.

لامفـر لـي مـن عشـقه.. فهـو الصـورة الحقيقيـة لـلأب الحنون الـذي غمرنـي بحنانـه حتـى قتلتـه أمـي دفاعـاً عـن نفسـها وعشـيقها اللعـين، وقتلـت جـزءاً مـن روحـي الـتي أحيـا بهـا..

أنا الفرد الذي انقسم لتوأمين أعداء..

كل منهما له معاييره وشخصيته وتفكيره..

صبي وفتاة.. أنا!!

رجل وامرأة.. أنا!!

متى سأصبح أنا؟!!

وأين وكيف ؟!!

مذكرات لطيفة

١٣-١٢- ٢٠٠٩م

دبي - الإمارات

★★★

-١٤-

أحياناً نشعر بداخلنا أن تلك اللحظات التي تستحق أن نصفها بأنها أجمل لحظات الحياة تعتبر مقدمة لما يمكن أن نطلق عليه أسوأ لحظات الحياة، أو نهاية الحياة في بعض الأحيان، ولكن على كل حال يمكننا أن نعيشها بكل ما فيها، وقد تبكينا أو تداوينا..

كانت تلك لحظات السعادة الأخيرة والتي كللت مأساة حياتي، وبدأت بعدها نهايتي، كنت كأنني أبغض السعادة، وأبحث عن تأكيد للآلام بداخلي، كنت أشعر كأن السعادة جريمة في حق أبي الذي قتلته أمي..

كيف أسعد وبداخلي ثورة على الأنوثة بكل أشكالها؟!

كيف أسعد وأنا أم مثلها ولي زوج طيب القلب مثل أبي؟!

كيف أسعد وأنا عاجزة عن مبادلة زوجي مشاعر الحب والأمان والعطاء والحنان والدفء التي يغمرني بها ليل نهار؟!

كانت تلك الليلة هي البداية وأنا بفراشه وهو إلى جواري، ممسكة بملامحه الأبوية كأنني فتاة تتعلق بأبيها لتلح عليه في

طلباتها حتى يستجيب، وهو يفكر بعمق كيف أطلب منه ذلك؟!

كيف تطلب أنثى من زوجها أن يتزوج؟!

ولماذا؟!

كأني أشعر بمعترك في داخله حامي الوطيس..

شكوك تراوده حول مغزى ذلك الطلب الملح والغريب..

كيف أبرر له أنني أطلب منه ذلك ؟!

كيف أقنعه أنني أنتقم من الأنوثة بكل أشكالها ومعانيها؟!

ولأنني أنثى.. كنت أريد أن أعاقب نفسي.. كنت أود أن أنتقم لأبي من أنانية الأنثى وأطماعها.. كنت أود أن أكفر عن وصمة عار في تاريخ الأنوثة تدعى «أمي»..

فكيف لي أن أقنعه بذلك؟ ومتى أسعد بذلك اليوم الذي ستقاسمني في زوجي امرأة هي أجمل مني وأجدر بزوجي من تلك اللعينة التي أنجبتها بطن قتلت زوجها الذي يدعى «أبي»..

مذكرات لطيفة

القاهرة – مصر

٢٠٠٩-١٢-١٣

★★★

-١٥-

حيرتي تزداد وشكوكي بعد عودتي من السفر..

ترى لماذا تطلب مني الزواج؟!

هل خانتني وتريد أن تكفر عن ذنبها؟!

هل تريد أن تجد سبباً مقنعاً للانفصال والزواج برجل آخر براحة ضمير؟!

تراودني الأسئلة منذ عودتي إلى تلك الغامضة التي تحمل بداخلها ألغازاً لاحل لها ولا تفسير..

صارحتها بشكوكي في تلك الليلة ودققت النظر في عينيها الشاردتين دائمتي النظر إلى المجهول، فقالت إنها عجزت عن إسعادي، وأنها تريد أن أتزوج أخرى تسعدني أكثر منها، فاعتراني الذهول لمنطقها الغريب.. هذا ليس منطق الأنثى الأناني، فلو كانت خانتني فلن تطلب مني أن أتزوج غيرها، ولو كانت تريد الزواج من غيري فلن ترضى على نفسها أن أتزوج غيرها ثم تتركني وتتزوج غيري، فهذا ليس من طبع تلك الغامضة..

لطيفة..

أريد أن أسبح في أعماق بحرك..

أريد أن أستكشف أسرار قاعك..

بحنانك اللامحدود كلما حاولت الغرق فيك..

دفعتني أمواجك على الشاطئ مرة أخرى كي لا أغرق..

مذكرات أبمن

القاهرة - مصر

١٣- ١٢-٢٠٠٩

★★★

-١٦-

كانت لطيفة في تلك الليلة حالكة الظلام تغوص في أعماق بحر من الشجون وقد عصفت بها خواطرها حينما دلفت إلى غرفتها المظلمة، تفتش عبثاً عن ومضة أمل تداوي قلبها من كل جرح أدماه ومن كل وجع نبض به..

ضباب الذكريات يلوح لها في الأفق الأسود البهيم، غير أن بعض الومضات البراقة بعبرات مسكوبة على الجفون، وتلك الآلام التي تحطم قضبان ضلوعها لتودي بقلبها الأسير في مقتل.. وأصوات الهلع والفزع والجزع التي ترتجف لها أوصالها وتزلزل كيانها، فيعجز إدراكها عن استيعاب كل ما حدث وما يحدث، وأن ذلك الواقع أشد قسوة من كوابيس المنام.

كانت لا تنزعج من حسابات الأقدار، ولكن يكاد قلبها ينفطر لأجل القلوب التي تضررت بقساوتها وصقيع مشاعرها وجمود أحاسيسها.

كانت تلك هي الليلة الأخيرة من ليالي السعادة نادرة الوجود، وغد ستقلع الطائرة بزوجها إلى سماء أخرى لتهبط

على أرض أخرى، بعيداً عنها.. وها هي ستعود إلى عزلتها القاتلة وما تعانيه من ابتعاد ابنها علي عنها، فها هو قد غادر مصر مع زوجته وأمها إلى بلد أخرى يعيش فيها وليس بينه وبينها سوى اتصالات هاتفية متقطعة، وقد اعتادت هي الأخرى على جفائه وقسوته معها، فهي قد قررت منذ أن أنجبته أن تعلمه الجفاء والقسوة لكي يستطيع مواجهة قسوة الحياة وجفائها، دون أن يدمع له جفن أو ينبض قلبه بالحنين إلى شيء حتى أمه، وما كان انفصالها عن أبيه محسن حسين إلا خطوة لتُقصي أباه عن مسرح الأحداث ولا يجد الابن حنيناً إلى أب قد يرحل عنه في أي وقت، وقد يقسو عليه أو يتزوج بأنثى خائنة تقتله وتتحول حياة ابنها إلى جحيم آخر كالجحيم الذي عاشت فيها.

هكذا هي لطيفة..

أرادت أن تعصم ابنها من الحياة..

ولكن الحياة تأبى أن تسير وفق إرادة إنسان..

★★★

-IV-

طائرة الرحيل تطير مرة أخرى، وها هي سماء الإمارات العربية المتحدة مرة أخرى، وحنين يجتاح قلبي لتلك الهادئة العميقة لطيفة الإماراتية.. الوجه الآخر لزوجتي لطيفة المصرية، ولا أدري هل هذا يعد في القاموس خيانة، أم أنه الحب الخالص لزوجتي ولمن شابهها؟!

ارتفعت أصوات العائدين بعدما هبطت الطائرة وأخذت أتطلع في وجوه الناس وعيناي تبحثان عن وجه لطالما كنت أحلم أنني سأراه يستقبلني، ويا لعجبي من الأماني عندما تبتسم فتشعر بالدنيا كأنها الجنة.

وجهها الصامت وتلك العينان الزائغتان تبحثان عن شيء تنتظره، ويالسعادتي عندما علمت أنني المنتظر، وإذ تحولت أقدامي إلى أجنحة تطير إليها، وشوق القلوب يضيء أبصارنا.

«كيف حال زوجتك؟!»

تساءلت والغيرة تملأ عينيها، وكأني كنت قيد الاختطاف، وكأنني كنت الحق المسلوب منها، والآن قد عدت إليها.

في تملق أجبتها: هي بخير ولله الحمد وقد أرسلت إليك أطيب التحيات.

«حقاً؟!»

في حنق قالتها.

وقطعنا الطريق سيراً على الأقدام حتى لقد نسيت حقائبي الثقيلة والتي أخذت أجرها بمعاونتها طوال الطريق إلى منزلها الكائن بشارع هادئ ضيق يقع بعيداً عن صخب المدينة وضجيجها، وارتقينا الدرج حتى بلغنا باب المنزل وغمرني شعور عجيب بالاسترخاء حتى كدت أن أسقط نائماً على أقرب مقعد، ويالروعة أناملها التي ربتت على كتفي من الخلف تسألني عن مشروبي الذي أفضل تناوله الآن.

مع أولى رشفات الشاي الساخن جلست أمامي تتأمل أعماق ملامحي كأنها تخاطب المجهول الذي لا أراه، كنت أشعر كأنني أحدثها بلا صوت، والكثير من الكلام يذوب على شفتاي.

ونمت..

★★★

-١٨-

صباح الوحدة والعزلة والاشتياق الشديد للحبيب الغائب وسلام على مشاعري التي حان موعد انتحارها.

الطبيب النفسي الذي سأذهب إليه الآن هو من خيرة الأطباء، وقد حجزت موعداً للفحص والاستشارة، عساه يجد لعلتي دواء ويجعل لمعاناتي انتهاء.

ها هي عيادته، وتلك السيدة التي تجلس على مكتب الاستقبال وأمامها أوراق مبعثرة ومجموعة متراكمة من الروشتات:

– السلام عليكم..

– وعليكم السلام..

– بكم ثمن حجز الاستشارة الطبية؟

– بخمس وسبعين جنيهاً فقط..

حسناً اسمي لطيفة..

★★★

-١٩-

تسللت أشعة الشمس عبر نافذة الغرفة تداعب وجه ذلك النائم ليستيقظ ببطء وتلتقط عيناه صورة حورية واقفة أمامه تحمل مرآة تعكس أشعة الشمس على وجهه وتأتي إلى جواره قائلة: أردت أن أوقع تلك المرآة التي سترى وجهك الآن في حبك كما وقعت أنا، حتى أرى إن كنت على حق أم لا.

لاحت على ثغره شبح ابتسامة سرعان ما تلاشت لتتحرك شفتاه بتساؤل: كم الساعة الآن؟! لترد عليه الأخرى بخجل: حوالي الثانية عشر وربع ظهراً، فوثب من على فراشه وهرول إلى الحمام وتركها وحيدة تعاتب نفسها بشدة على مغازلتها له وتتصارع أحاسيس الخجل والكبرياء بداخلها.

كيف لها أن تقع في عشق رجل متزوج؟!

وهل كتبت لها الأقدار الصيام عن الرجال حتى تجد إفطارها على رجل له أنثاه فتشاطرها حبه!؟

عجباً لتلك الدنيا الغريبة وأحوالها العجيبة!!

★★★

-٢٠-

التقط الطبيب النفسي محسن ضياء ورقته وقلمه ونهض متجهاً إلى تلك الحالة النفسية الغامضة التي طرقت بابه لتوها لتتلو عليه كتاباً جديداً لم يكن له مثيل على رف مكتبه القابع في غرفته التي تراصت فيها الكتب كأنها الجدران، وليسألها أسئلته القياسية عن سر شكواها وصراعاتها النفسية وما الدافع الذي جعلها تبحث عن طبيب نفسي.

حدجته بنظرة غامضة ثم سرعان ما أغمضت عينيها لتستكشف بداخل سواد الغموض بعض الوميض الذي يحمل لمحات حياتها المعقدة وتلك الصدمة النفسية الكبرى التي جعلتها تعيش بلا حياة، وتفكر كثيراً في قتل نفسها، ولكنها كانت لا تريد أن تنتحر انتحاراً مألوفاً، كالذي يراه الناس على شاشات السينما كل يوم.

روت قصتها للطبيب بالكثير من الحزن، وابتل وجهها بالعبرات حتى عجزت يداها الرقيقتان عن تجفيفه، عندئذ نهض الطبيب يأتيها بأوراق المناديل المتدلية من علبة مستطيلة على مكتبه، لتجفف دموعها.

فتحت عينيها في بطء ونظرت إليه نظرة كانت لذلك الطبيب الخبير في مجال العلوم النفسية تحمل الكثير من الغموض، ولأول مرة يعجز العلم عن تحليل تلك النظرات التي لم ترسمها أيدي الخبراء ولا يزال قاموس التحليل النفسي يخلو من معرفة كنهها.

ولكنه حاول أن يقلدها ويسرح في نظرتها ويحاول أن يبادلها بمثلها ولكن دموعها الوامضة كحبات اللؤلؤ أعجزته أكثر وأكثر، وأشعتها النافذة التي تسللت إلى قلبه كالسحر الأسود فأمسكته بقبضتين فولاذيتين رغماً عنه فجعلته ينبض بأقصى سرعته كأنه يعدو أميالاً بأقصى ما أوتيت قدماه من سرعة.

وأغمض عينيه وتحول إلى ذلك المريض النفسي الذي راح يتلو على مسامع لطيفة قصة حياته وما لاقاه في حياته من صعاب وجحيم.

ولأول مرة في حياته يعجز عن علاج مريض، ويتحول هو إلى معتل يشكو حاله لمثله.

وأغرب هي تلك الأيام التي تحمل ما لايتوقعه إنسان..

★★★

-٢١-

مـرت السـنوات بداخـل السـجن عسـيرة وأصعـب مـا فيهـا هـو الخسـران المبـين الـذي لايـكاد تعوضـه كنـوز الدنيـا.

خسران الزوج الصالح..

والطفلة البريئة التي لم يعد لها أثر في الوجود..

خرجـت مـن السـجن اليـوم، والـذي قضـت فيـه عمرهـا في الحكـم الصـادر عليهـا لجريمتهـا الـتي اقترفتهـا في حـق زوجهـا.

القتل..

أم لطيفة..

من؟!

أنا جارتك أم زياد..

أهلاً يا أم زياد..

حمد لله على سلامتك..

الله يسلمك يا أم زياد..

رغم كل ما حدث لك يا أم لطيفة إلا أنني لازلت أحبك ولا ينساك ابني زياد وابنتي ميرفت..

كل الدنيا أبغضتني يا أم زياد حتى ابنتي لطيفة التي لو رأتني الآن لقتلتني من فورها ثأراً لأبيها.

هوني عليك يا أم لطيفة.. تعالي معي إلى بيتي لتؤنسي وحدتي وتمكثي معي فلقد أرسلك الله لي نجدة من السماء فالوحدة تكاد تقتلني.

★★★

-٢٢-

ضغط أيمن أزرار جهاز التحكم بالتلفاز يستعرض قنواته وقد جلست إلى جواره حوريته التي جمعته بها الأقدار ولا يدرك لذلك سبباً، وكيف له أن يسكن معها وهي لازالت غريبة عنه..

هل يجرؤ على الزواج بها؟!

هل تزوجها بالفعل دون إجراءات رسمية؟!

ويا ترى كيف لو علمت زوجته المصرية بإقامته مع امرأة أجنبية؟!

جاءته تحمل في يديها طبق الفيشار الساخن وجلست بجواره تطالع تلك القناة المصرية التي تعرض فيلماً من أفلام إسماعيل ياسين وقد وضعت رأسها على كتفه وداعبت أنامله شعرها في رقة..

هل تفكر بها ؟!

نعم.. أشعر بالحنين إلى كل شيء هناك!!

هل تستطيع أخذي معك إلى هناك؟!

الحياة هناك أصعب مما تتخيلين..

إذن فلتبق معي هنا..

وزوجتي؟!

أرسل لها تأشيرة إقامة وسوف أنهي لك إجراءاتها بنفسي..

وهل ستستطيعين العيش معها؟!

حتى لو لم يحدث يكفي أنك ستظل قريباً مني!!

كم هو رائع!!

ماهو؟!

عشقك!!

أتدري ما السبب؟!

كلا..

أنني أعشق رائعاً..

★★★

-٢٣-

أبحث عن لطيفة.

استطردت أم لطيفة حديثها بتلك الأمنية التي تعلم أنها من المستحيلات، وإن تحققت فسوف تصبح من الموبقات، فإن تلك الفتاة التي رأت أمها تقتل أباها، أنى لها أن تسامح أمها بعد كل ما حدث لها؟!

التمعت عينا أم زياد بدموع الشفقة على حالها، وأخذت تربت على ظهرها وتواسيها قائلة: هوني عليك يا أم لطيفة ودعي الأقدار تسير بما شاء الله، فأومأوت الأخرى برأسها أسفاً وقالت:

«ونعم بالله.. راضية بما قسمه الله عساه يتوب عليَّ مما اقترفت يداي الآثمة»، وارتمت بحضنها تصرخ وقد أغرقت وجنتيها دموع الندم على ما فاتها من العمر وحياتها التي تحولت إلى جحيم بنزوة لحظات سارقة..

سرقت العمر كله..

★★★

-٢٤-

في تلك العيادة شهدت لطيفة نبضات قلبها تدق بالخيانة، لماذا وكيف حدثتها نفسها بالوقوع في شراك الرغبة المحرمة مع ذلك الطبيب النفسي الذي لم يكن إلا مريضاً يبحث عن دوائه لديها؟!

وكانت كلما حانت ساعة إغلاق العيادة تحضر إليه بحجة استشارته في أمرها الذي حيرها، ولكن كلًا منهما وجد دواءه في داء الآخر، وأشبع كل منهما نقصه..

تمتمت لطيفة بكلمات ترطب ضميرها الظامئ:

أتراه يخونني كما أخونه؟! فكما أدين سأدان..

حدجها بنظرات حائرة كأنما لم يرق له تفكيرها بزوجها وهي برفقته وأطرق برأسه إلى أسفل:

ومن منا لا يخون، فالخيانة قد تكون دواء مر المذاق للكثير من أوجاعنا..

أومأت برأسها رافضة وقالت:

كلا إنهـا مجـرد فلسـفات وهرطقـة، فالأوجـاع لا تداويهـا الأوجـاع، ولا حاجـة لـي بتبريـر أفعالـي المريضـة، وانقضـت قائمـة تهـرول وتصفـع البـاب خلفهـا في عنـف، وغلـب علـى ظنـه أنهـا لـن تعـود..

أبداً.. لن تعود!!

★★★

-٢٥-

كيف حالك يا أم لطيفة؟!

بعد كل تلك السنوات ورغم رحيلي إلا أنني قد رأيت أنه من الحكمة أن تراني في منامك، ورسائل الأموات في المنام حق..

أنقذي ابنتي لطيفة التي تشردت من بعد رحيلي وضاعت، ابحثي عنها بكل ما أوتيتي من قوة، فهي على شفا حفرة من الهلاك، ورغم أن يديك آثمتان بدمائي إلا أن ما عند الله هو خير وأبقى من أن أحمل لك غلاً أو كراهية، وأحمد الله على رحيلي شهيداً..

ابنتي لطيفة ضحيتك الثانية من بعد قتلي، فقد أصيبت بعقدة نفسية واضطراب يمكن أن ينتهي بانتحارها، وإني أخشى ذلك عليها؛ فهي لا تستحق أن تكفر عن إثمك التي اقترفته وتنتحر لأجل أنها أنثى..

تكفيرك عن إثمك في هذه الحياة هو اللحاق بابنتي وإنقاذها بأي ثمن، وإذا لم تستطيعي ذلك في حياتك فاعلمي

أن فرصتك في النجاة من إثمك قد فاتت ويضاعف لك إثمك جزاء وفاقاً..

حملته الضبابات وارتقت به مرة أخرى إلى السماء، واستيقظت أم لطيفة مفزوعة، وجعلت تحاول تذكر رسالة زوجها الراحل في رؤياها، ونهضت مسرعة تبحث عن ورقة وقلم لتدون ما قاله لها، لئلا تنسى..

★★★

-٢٦-

العيادة خالية، انتهى اليوم ولم تحضر كعادتها..

ذلك هو اليوم الثالث على التوالي ينتظرها دون مجيء، متسائلاً عن سر غضبها وهل ستعود أم لا؟!

يا لها من مريضة، جاءت ليداويها فأعيته بعشقها وأصبح المريض ودواؤه رهناً بوصالها، هكذا لعبت به الأيام بعد كل تلك الأعوام التي قضاها عزباً لا ينوي زواجاً ولم يكتبه في أجندة مخططاته..

جاءت لتعصف بكل أوراقه وتحطم بمعاول غموضها أسواره، وتخترق حصونه المنيعة، وتنبش ضلوعه وتخرج قلبه الدفين وتسحقه تحت قدميها..

عصفت خواطر العشق والمقت بكل تناقضاتها بذهنه واكتوت شراييه بدماء قلبه الملتهب بنيران داء تحصن منه كثيراً وأبى إلا أن يصيبه..

ثـم سـرعان مـا لمعـت في عقلـه فكـرة أن يفاجئهـا باتصالـه، ولم يمهـل نفسـه وقتـاً أطـول مـن ذلـك والتقـط هاتفـه وأسـرع يضغـط زر الاتصـال..

★★★

-٢٧-

لطيفة وصراعات لا تنتهي تعصف بقلبها وعقلها وتكاد تنتزع روحها انتزاعاً يضع عن كاهلها ثقل الأوزار وعن صدرها أطنان الهموم التي تكاد تحطمها تحطيماً..

هي لا تدري ما سر تصرفاتها فضلاً عن أن تبحث لها عن علاج..

حتى محاولاتها العابثة للعلاج النفسي راحت هباء منثوراً..

غاصت في خيالاتها تحاول أن تصنع سيناريو زواج حبيبها ورفيق حياتها، ترى هل سيطيعها ويبحث عن امرأة أجمل منها ويتزوجها ويعود بها إلى مصر لتبارك له زواجه؟!

أخذت تسرح تخلق في مخيلتها تفاصيل عروس زوجها، وكيف سيكون حاله معها؟!

وهل سيستطيع أن يجافيها وينتزع من فؤاده عشقها؟!.

أم أنه سيعصى أمرها ويكون لها وفياً؟!

هـل سـيعود إليهـا يعذبهـا بحضـن عميـق وحنـان أبـوي لا تسـتطيع مقاومتـه ويمسـح علـى شـعرها قائـلاً.. لا أسـتطيع أن أقحـم حياتـي امـرأة سـواك يـا لطيفـة حياتـي كلهـا..

هكذا تتأرجح بين عذاب خيالاتها وتناقضاتها المتصارعة..

هكذا كانت تريد ما لاتريد، وتكره بعض ما تتمناه، وتخشاه..

وفجـأة قطـع حبـل أفكارهـا أزيـز هاتفهـا الجـوال فـردت قائلـة:-

ماذا تريد؟!

أتاها صوت الدكتور محسن ضياء خافتاً:-

أريد أن أعتذر لك عن كل شيء..

بحدة مصطنعة أجابت:-

لا حاجة للاعتذار.. أنا السبب..

معترضاً قال:-

كلا.. مـن الضـروري أن أراك، أريـد أن أشـرح لـك الكثـير مـن الأشـياء الـتي..

قاطعته بحدة قائلة في لهجة من حسم أمره:-

أغلــق الخــط مــن فضلــك ولا تحــاول الاتصــال بــي مــرة أخــرى..

وضغطت زر الإغلاق بقوة..

وألقت بهاتفها أرضاً..

★★★

-٢٨-

كيف حالك؟!

تعانقت العيون وتلعثمت الشفاه بكل اشتياق الدنيا، ولم يجد أحدهما سوى تلك الكلمة البسيطة التي تحوي بداخلها الكثير..

كلما رأيتك أشعر بأن وطني مصر..

وأنا أشعر بأنك وطني..

تعانقت الأيدي.. وتنهدات صدورهما ونبضات قلوبهما تصارع اللهفة، وقد قرر أن يصارحها بما لم يخطر بباله أن يقوله الآن:

— هل تقبلين الزواج بي؟!

وكالمصعوقة خرجت من بين شفتيها حروف مسروقة:

— ولطيفة !! .. زوجتك؟!!

— هي التي طلبت مني ذلك..

– كيف ؟!!

– لا أدري.. لقد فجر طلبها هذا براكين الشك والحيرة في صدري، ولكني اعتدت غرابتها وغموضها منذ زواجنا..

– امممممم.. أحقاً ما تقول؟!

– أجل .. وسوف نرحل إلى مصر فور زواجنا بإذن الله لتتيقني صدق كلامي بنفسك..

– أصدقك يا حبيبي.. لكن هناك شيئًا يثير حيرتي وشكوكي..

– وأنا أيضاً مثلك.. ولكن ما باليد حيلة..

– حسناً.. هيا نتزوج ولنذهب إليها لنعرف ما يدور بخلدها، فإحساس بداخلي يراودني أن بجعبتها الكثير من المفاجآت..

★★★

-٢٩-

«هاتفت زوج أختي موظف في السجل المدني وسيبحث عن اسمها كاملاً ليتوصل إلى محل إقامتها وسوف تجدينها بإذن الله»

نطقتها أم زياد وقد افتر ثغرها عن ابتسامة تحمل الكثير من الثقة والتباهي بعلاقاتها الهامة وربتت على كتف أم لطيفة في حماس ونهضت مهرولة إلى المطبخ تعد طعام الغداء..

هل تظنين أنني سأعثر على ابنتي يا أم زياد؟!

إن شاء الله يا حبيبتي ستعثرين عليها وستعيشان معاً..

وهل تظنين أنها ستغفر لي قتل أبيها؟!

بالطبع يا أم لطيفة.. ثم إنها كانت فتاة صغيرة من المؤكد أنها قد نسيت ما حدث، ثم إن «الحي أبقى من الميت»، وربنا غفور رحيم..

لا أدري يا أم زياد.. أشعر بأن ابنتي ستقتلني فور رؤيتي، ومن المؤكد أنها لن تستطيع أن تنسي أمًّا كانت هي سبب يتمها وتشردها، والله أعلم بما لاقت من أهوال الشوارع! وهل هي حية أم ميتة؟!

هونـي عليـك يـا أم لطيفـة.. إن شـاء الله كل شـيء سـيعود أفضـل ممـا كان، وسـيعوضك الله سـبحانه وتعـالى عـن كل شـيء، ويسـامحنا ويجمعنـا في الجنـة، كلنـا نخطـئ والسـعيد هـو مـن يتـوب ويـزداد إيمانـه وتتضاعـف ثقتـه برحمـة الله وعفـوه ويطمـع في جـوده وكرمـه..

عندك كل الحق يا أم زياد..

★★★

-٣٠-

ارتفع رنين الهاتف وامتدت يدها إليه لتضغط زر الرد بلهفة:

- كيف حالك يا حبيبي؟!
- بخير يا لطيفة.
- هل أنت على ما يرام؟
- أجل يا حبيبتي.

ارتسمت على ملامحه أمارات الدهشة وأجابها باقتضاب:

- هل لازلت تصرين على ذلك؟!

أجابت بسرعة:

- بكل تأكيد..

قال: حسناً كما تشائين، وسكت هنيهة ثم استطرد بحذر: ولكن – هل ترين أن أقيم زفافي هنا في الإمارات أم في مصر؟

أجابت برقة:

- كما يحلو لك..

أضاف في ثقة:

- تأكدي أنني سأختارها مثلك لتتيقني من عشقي لك..

أجابت شارحة:

- أنا واثقة منك تمام الثقة يا حبيبي، ولكن ثقتي في نفسي هي التي ماتت بموت أبي.

واغرورقت عيناها بالدموع وأغلقت الهاتف.

★★★

-٣١-

أخـذ يكـرر الاتصـال دون كلـل، وأخـذت هـي الأخـرى تتجاهـل دون ملـل، حتـى يئـس مـن ردهـا، وسـرعان مـا أذهلـه رقمهـا يظهـر علـى شاشـة الاتصـال دون أن يصـدق ذلـك، ولكـن تيقـن لمـا رفـع سماعـة الهاتـف وقـال مرحبـاً، جـاء صوتهـا كميـاه تطفـيء نـيران شـوقه وكبريائـه..

في حدة هتفت:

— ماذا تريد وما الداعي لإلحاحك؟!

— ألم أخبرك أنني قد أتيت لتعالجني لا لتمرضني؟!

استوى علـى كرسـي مكتبـه وأخـذ يعبـث بمحتوياتـه بعصبية وقـد ارتفعـت حـدة أنفاسـه، إلا أنـه قد اسـتجمع قـواه وقال لها:

— فلننـس مـا مضـى ونسـتأنف العـلاج مـن جديـد؛ فلقـد وضعـت لـك برنامجـاً علاجيـاً سـيعجبك..

ولم يجد رداً سوى صفارة إنهاء المكالمة، فألقى بهاتفه في حدة على مكتبه، ورفع قدميه على مكتبه وأفسح طريقاً للعبرات تذرف بين عينيه..

ولأنه لم يشأ أن تنتهي قصته معها هكذا تناول هاتفه حتى كاد يعتصر أزراره وجعل يكتب رسالة إليها تحمل من التهديد والوعيد ما تحمل، فلقد جرح عناد أنوثتها كبرياء رجولته وقلبه الرابض بين ضلوعه مشتعلاً بلهيب عشقها، وتم إرسال الرسالة..

قرأتها ببرودها المعهود، وباغتته باتصالها فتناول هاتفه بكل فزع الدنيا كأن عفاريت الجن تتراقص أمام ناظريه، ورد قائلاً:

— لم أكن أتوقع اتصالك مرة أخرى..

فأجابته بنبرة تحمل صرامة الدنيا:

— يمكنك الحضور إلى منزلي الآن، وإن لم تأتني من فورك فلا تتصل بي مرة أخرى، ولا تحاول أن تتخيل لي شبحاً في ذهنك.

فسكت هنيهة ثم أخذ يلتقط الكلمات من بين شفتيه مذهولاً:

— أين عنوان منزلك؟!

فحددت له عنوانها تفصيلاً، فأنهى المكالمة وانصرف.

تعالت طرقات الدكتور محسن ضياء فأسرعت نحو الباب لتفتحه وكأن صواعق السماء قد هبطت على رأسه في تلك اللحظة، فلقد رأى أمامه ما تعجز الأقلام عن وصفه وتعجز الأذهان عن استيعابه، فتلك المرأة التي كشفت له عن جسدها في عيادته، قد ازدادت فتنة وسحراً في منزلها وفاح من جسدها عبيراً كأنه جمع زهور الدنيا، يتضرج جسدها ناصع البياض بحمرة كأنها نار تلظى يصلاها ذلك المسكين فور دخوله فتجذبه إلى حرها وسعيرها ويذوب كالشمع تسقط مياهه لزجة على جسده، وكأنه غاب عن الدنيا، بينما ظلت هي متقدة لا تنطفئ.. مستعرة لا تبرد.. تحرق ولا تخمد..

★★★

-٣٢-

— هل أنت متأكد أن هذا هو عنوان لطيفة ؟

قالتها غير مصدقة بينما يطالع موظف السجل المدني الملفات أمامه ويؤكد لها قائلاً:

— أجل يا أم لطيفة هذا هو عنوانها بالتفصيل المل.

في سعادة غامرة ربتت أم زياد على كتفيها وقالت:

— مبارك يا أم لطيفة..

— والله يا أم زياد لا أستطيع أن أوفيك شكرك، لكن هل ما يحدث هو من حسن حظي أم العكس؟!

— تفاءلي بالخير يا أم لطيفة.. هوني عليك.. اللي انكسر يتصلح.. ومسير الحي يتلاقى..

— قلبي مقبوض بشدة يا أم زياد، وأشعر أنني لو رأيتها ستخرج روحي من جسدي.

خرجت من حلقها شهقة استنكار قائلة:

الشر برا وبعيد يا أم لطيفة، خليك متفاءلة كدة ياختي ده ربنا سهلك الحال وأذن باللقاء بعد كل العمر ده، هتيجي للآخر وترجعي في كلامك.. اجمدي كدة أمال..

في خضوع واستسلام أومأت برأسها قائلة.. ربنا يقدم اللي فيه الخير.

وفي طريقهما للمنزل توقفت أم زياد أمام متجر للهدايا، وقد اقترحت على أم لطيفة أن تدخل معها لانتقاء هدية مناسبة لابنتها، فمن غير المعقول أن تتلاقيا بعد كل هذا العمر دون هدية..

نظرت إليها أم لطيفة بامتنان وأخذت تربت على كتفها الأيمن قائلة:

لا أدري كيف كنت أستطيع العيش بدون لقائك يا أم زياد.. الحق أقول ما كنت أقوى على كل هذا وحدي، وارتميت في أحضانها باكية..

شعور غريب يجتاح أعماق تلك السيدة؛ فهي تقع بين شقي الرحا؛ تطحنها الحيرة والخوف والقلق والشوق واللهفة، فهي تخشى أشد ما تخشى مواجهة ابنتها بعد كل هذا العمر وما اقترفته يداها في حق أبيها، فهل من الممكن أن تنسى الابنة تلك الحادثة الأليمة؟!

وهل من الممكن أن تغفر لها جريرتها؟

وكيف عاشت حياتها وحيدة شريدة تعاني مرار اليتم والوحدة؟!

وسرعان ما تحاول الهروب من كل تلك الصراعات، فتشجع نفسها قائلة:

ليكن ما يكون.. حتى لو قتلتني انتقاماً لأبيها، فقط يكفي أن ألقاها قبل أن أموت.

نظرت إليها أم زياد في حنان، وأخذت تطمئنها قائلة:

هوني عليك يا أم لطيفة.. كل شيء سيكون على مايرام.

قالتها وفي قلب كلتيهما نيران من الخوف والقلق مبهم..

ولكن لم يكن أمامهما سوى الاستسلام للقدر..

وليفعل الله ما يشاء..

★★★

-٣٣-

أظافرها تنهش في جسده.. فيزداد إحساسه بالألم والمتعة بمزيج عجيب طالما تمنى أن يشعر به، ولطالما تمنت هي الأخرى أن تستلذ بتعذيب كل رجل خائن، يرضى على نفسه أن يعاشر حليلة رجل آخر..

تفننت في تعذيبه واستثارة صرخاته الرجولية، فقد كانت تتناول إحدى الشمعات المضيئة من حولها وتطفئها على جسده، وتجلب مكعباً من الثلج تضمد به مكان الحرق، وراح بين يديها في استسلام عجيب، مستلذاً بشكل عجيب بكل ما تفعله في جسده، والتي طالما تخيلها فتاة أحلامه، تجمع بين نعومة القطط وشراسة النمور..

في عينيها تذوب جميع آلامه، ويتوه في أعماقها فيرى كأنها شاشة تعرض له ذكرياته ويرى فيها ما ينسيه جميع أيامه، ولما يتوقف عقله عن التفكير ليصبح كالآلة بين يديها، تحركه كما تشاء..

ذلك الطبيب الذي كان يعاني من الحرمان منذ طفولته، وشراسة أمه التي كانت تقوم بدور الأب والأم، فقد مات

أبوه بعد مولده بعام، وتولت أمه رعايته وتربيته حتى كبر، وتخرج من جامعته وتخصص في الطب النفسي، وساعدته أمه على إنشاء عيادته الخاصة، ليختار حياته التي قرر أن يعيشها مع أمه، يرعاها في كبرها وينفق عليها وعلى علاجها من أمراض الشيخوخة، فهي تمثل له كل حياته، حتى رحلت عن العالم الأول إلى العالم الآخر، وتركته وحيداً..

لم يتعود في حياته أن يحب، كان يبحث عن أم أخرى.. لها قوة أمه وسيطرتها وحنانها، تفعل به ما تشاء دون اعتراض منه..

كان يعشق النساء، ويتلهف على التعرف على أنواع مختلفة منهن عساه أن يجد في إحداهن شبيهة أمه، وحتى وجد لطيفة.. توقف بحثه، وأقام في مخيلته حفل زفافه، فقد وجد فيها كل شيء يتمناه وأكثر، ولقد وجد فيها دواءه..

ولم تجد فيه دواءها..

حتى قررت أن تدعوه لمعاشرتها في منزل زوجها الذي تعشقه بكل قلبها..

والذي ألحت عليه حتى يتزوج غيرها..

لسريرة ما في أعماقها..

لا يدركها سواها..

★★★

-٣٤-

أقلعت الطائرة متجهة صوب مصر تحمل على متنها أغرب قصة عشق تتجه إلى حفل تتويجها، وقد تعانقت أيديهما في حنان، تعصف بهما أفكار شتى..

بادر أيمن لطيفته قائلاً:

— لابد وأن القلق يعصف بداخلك لما قادمون عليه في القاهرة، أليس كذلك؟!

رفعت رأسها التي كانت تضعها على كتفه واحتوته بنظرة يملؤها الحنان وقالت:

— أنا أشعر بأحاسيس تجمع كل التناقضات في طياتها..

سكتت برهة وقد غمرها دفء يديه التي تتحسس وجهها فاستطردت قائلة:

— أشعر وكأنني خائفة من شيء مبهم.. ليس لأنني أخشى من زوجتك، بالعكس إنني أشتاق بشدة لرؤيتها والتعرف عليها، ولأسبر أغوارها وأتعرف على سر

غرابتها وغموضها ولماذا أصرت على أن تتزوج بأخرى عليها.. ولأرى وقع المفاجأة عليها بأنني أحمل نفس اسمها..

كان أيمن يستمع إليها وقد ذاب بعينيه في جمالها وتعابير وجهها المشرق الصبوح كأنه القمر يتحدث في السماء فتتناثر كلماته كالنجوم تشع ضياءً يبهر الناظرين..

ابتسم لها قائلاً:

— ألا تشعرين بالغيرة لأجل امرأة تشاطرك كل شيء؟!

في حماس أجابت وقد ازدادت إشراقة وجهها بابتسامة عذبة:

— كلا والله، بل إنني أشعر أنني وزوجتك سوف نكون كوجهين لعملة واحدة..

ولم تكن تدرك في تلك اللحظة، أنها على حق تماماً..

فكلتاهما .. وجهان لعملة واحدة..

★★★

-٣٥-

تعالت نبضات قلبها وتسللت على أطراف أصابعها حينما تتابعت طرقات على باب شقتها، ومرة أخرى يطالعها وجه الدكتور محسن من جديد، وليلة أخرى في ساعاتها الأولى، فهي لم تعتد أن يزورها سوى ذلك الدكتور، فزوجها لم يحن موعد مجيئه بعد، ورغم أنه قد اتصل بها وأخبرها بنيته للعودة، إلا أنها لم تتخيل أن تلك الليلة تحمل لها الكثير من الزوار..

والزيارات المفاجئة..

ذهبت تعد كوب من الشاي الساخن، وبعض الشطائر الساخنة، لتمد جسديهما ببعض الدفء في تلك الليلة الشتوية الباردة، وجاورت عشيقها على أريكة بصالة المنزل أمام التلفاز..

داعب خصلات شعرها بأنامله، وعانقها حتى كاد يحطم جسدها النحيل بذراعيه، وبرزت أظافرها كمخالب قط شرس، وبدأت تمارس هوايتها في تمزيق جسد ضحيتها، وهو يرقد مستسلماً في راحة عجيبة، ورضا غريب يبعث على الدهشة..

كم هي غريبة صراعاتنا النفسية؟!

تجعل أحدنا يكاد يحتمل أقسى الآلام بطاقة العاطفة..

بل وأكثر من ذلك.. قد نرتاح بتلك الآلام، ونتلذذ بها..

ويقف العلم عاجزاً عن تحديد أمراض النفوس بدقة، وكيف تتألم الأرواح وترتاح بشكل يقيني؟!

تعالت أصوات أقدام ترتقي درج العمارة وتتجه إلى باب المنزل لتتحول إلى أصوات طرقات متسارعة على الباب..

بالخارج تصعد سيدتان إلى نفس الشقة فتتساءل إحداهن:

هل هذه شقة السيدة لطيفة؟!

فيجيب الرجل الذي تتأبطه امرأة خليجية فائقة الجمال:

هذه هي شقتها بالفعل..

ويتعالى صوته منادياً:

افتحي الباب يا لطيفة..

بالداخل تنهض مسرعة إلى الباب غير مبالية بوجود الدكتور معها بالشقة، ويسرع هو بارتداء ملابسه يحاول العثور على منفذ للفرار..

ودون جدوى..

فتحت لطيفة الباب لتجد أمامها زوجها فتعانقه، وما إن لمحت أمها من خلفه حتى زاغت عيناها وسألتها في دهشة:

من أنت؟!

ويا لمفارقات القدر..

تعجز عقولنا على تفسير بعض الأحداث التي تظهر فجأة في حياتنا دون أسباب واضحة..

في تلك اللحظة بالذات تظهر أمها..

ويأتي زوجها..

ووجهها الآخر..

لطيفة الخليجية..

حاولت لطيفة أن تتماسك لأقصى درجة وذهبت إلى مطبخها تعد أكواب الشاي وقد أخرجت من رف صغير في المطبخ يحتوي على الكثير من المسكنات والمنومات والمهدئات، ووضعت المنوم في أكواب الشاي..

وخرجت لتجد زوجها قد دخل إلى غرفة النوم وقد وجد الدكتور محسن ضياء في غرفة نومه وقد كشف أمر خيانتها، فأسرعت إلى المطبخ مرة أخرى، وقد تعالت أصوات الشجار..

أحضرت لطيفة سكيناً من المطبخ، وهرولت حيث التف الجميع حول محسن وأيمن وقد أخذ كلاهما يتبادلان اللكمات والركلات..

باغتت لطيفة الدكتور محسن ضياء بطعنة من السكين في ظهره، فارتاعت الأم لهول ما رأت، وتعالت صرخات أم زياد تستغيث ولطيفة التي جاءت من الإمارات لتحتفل بعرسها جاءت لتعلن عن فرحها بصرخات الهلع والفزع تحاول أن تنقذ الأمر وتقيد لطيفة المصرية بلا جدوى، حتى فوجئت بها تتجه صوب أمها، وقد عجز الجميع عن إيقافها، وطعنت أمها في صدرها قائلة:

قتلت عشيقي الذي خنت زوجي معه من أجل أن أنتقم لأبي، فأنا لست مثلك أقتل زوجي من أجل عشيق خائن..

وأخرجت السكين مرة أخرى وسط صرخات الهلع والفزع، وطعنت نفسها.. وهوت على أرض الغرفة جثة هامدة بلا حراك..

هكذا هي صراعاتنا النفسية وخباياانا المكبوتة..

هكذا هي عقدنا النفسية..

خناجر مسمومة نطعن بها أنفسنا ونوقف بها حياتنا..

عقدتك هي الخنجر المسموم الذي تطعن به ظهرك..

لا تجعل أشباح ماضيك تخيفك..

لا تثقل كاهلك بآثام الآخرين..

فـإن كلًا منـا لا يحاسـبه الله عـز وجـل إلا علـى أعمالـه فقـط..

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

★★★